مجلة مقامات
EISSN 2253-0363: / ISSN : ISSN2543-3857
المجلد 05 / العـدد: 01 (2021)
ص 626- 636

عبد الملك مرتاض ناقداً.

-قراءة في توظيفات عبد الملك مرتاض للمناهج السّياقيّة في أعماله الأدبيّة والنّقديّة-

Abdel Malek Mortad as a critic
Reading of Abdel Malek Morted 's employments of contextual approaches , his literary and critical works

الباحث(ة)	مؤسسة الانتماء	البريد الالكتروني
د. يونس بوناقة	كلية الآداب والفنون – جامعة الشلف	ynsbounaga@gmail.com
محمد عبد الفتاح مقدود		mekmedadef@gmail.com

الملخّص تتغيا هذه الدراسة استظهار مدى توظيف الناقد الجزائري عبد الملك مرتاض لمختلف المناهج السياقية، سواء أكان ذلك في كتاباته النقدية أو حتى الأدبية الإبداعية على السواء، ولعل القارئ اللماح، والمتلقي الحصيف يدرك جليا مدى التنوع الكبير لاستعمالات المناهج السياقية في كتابات عبد الملك مرتاض، على غرار المنهج التاريخي، والمنهج الاجتماعي، والمنهج النفسي .إذن، إلى أي حد وفق عبد الملك مرتاض في توظيف مختلف المناهج السياقية في كتاباته النقدية أو الأدبية، وحتى الإبداعية؟ وأيها كان الأكثر اتكاء عليه دونما سواه من المناهج؟ وما الأمر المستجد الذي أضافه عبد الملك مرتاض في مجال المنهجة السياقية؟

الكلمات المفتاحية: عبد الملك مرتاض، المنهج السياقي، المنهج التاريخي، المنهج الاجتماعي، المنهج النفسي، التجريب المنهجي.

Abstract: This study focuses on exploring to what extent the Algerian Critic Abdel Malik MOrtad employs various contextual approaches whether in his critical writings , or even in his creative literary ones .Perhaps the good reader and receiver can clearly aware of the wide variety of uses of the contextual in Mortad's writings ,similar to the historical ,social and psychological method .So that ,to what extent it was possible for Abdel Malik Mortad to employ the different contextual method in his literary and critical writings even creative ones ? And which one was the most leaning on ?! And what is the new method that Mortad added in the field of contextual methodology?

Key words: contextual method, historical method, social method, psychological method, systematic experimentation.

1 مقدّمة:

كثيرةٌ هي آراء النّقاد العرب المحدَثين عن شتَّى ملامح أَضرُب منهج النَّقد التَّطبيقيّ عند العَرب، من منطلق مكاشفتهم الدّقيقة لشتّى مضامين الكلام عند الأمّة العربيّة بشقّيه؛ المنظوم والمنثور، وذلك منذ بوادىء تجلّي الكلام الأدبيّ عند العرب انطلاقا من العصر الجاهليّ وصولا إلى حاضرنا المعيش.

ولكم هي كثيرةٌ تباينات الطّرح النّقديّ بين النّقاد العرب المحدَثين والمعاصرين على السّواء إزّاء تقديمهم لماهيّة فنّ النّقد، ومفهومه، وتعريفه، وكذا توضيحهم لمسألة انشطار النّقد الحديث/ المعاصر إلى فَصّين متقابلين، وهما: النّقد السّياقيّ، والنّقد النّسقيّ، وهذه الموضوعة بالضّبط هي ما دفعت بكثير من النّقاد المعاصرين إلى النَّبش في مَكنُوناتها وتمفصُلاته المُختلفة، وذلك من خلال استقراء الكمّ الهائل من مجموع النّصوص والخطابات الأدبيّة المختلفة من شِعر، ورواية، وقصّة. وهلمّ جرّا على باقي ألوان النّصوص والخطابات الأدبيّة المعهودة عند العرب.

وكان من أبرز الأقلام النّقديّة الأَلمُعيّة التي تطرّقت نهوج درب النّقد نهجا سويّا سديدا؛ النّاقد الجزائريّ الفذّ عبد الملك مرتاض، وذلك من خلال إسهاماته المختلفة في تطبيقه المتنوّع لإجرائيّات النّقد في مختلف النّصوص الأدبيّة، وذلك بالتّوزيع على شقّي النّقد الأدبيّ؛ النّقد السّياقيّ والنّقد النّسقيّ. ولعلّه قد وُفِق عبد الملك مرتاض إلى حدّ واسع في إيضاح صورة ما للنّقد الأدبيّ بفَصيّه (السّياقيّ والنّسقيّ) من دور بالغ في تقريب معاني النّصوص ودلالاتها، وهي التي يتلقّاها المتلقّي مفكّكا شيفرتها ويؤولّها ممهّدا لميلاد نصّ آخر جديد.

ولقد كتب عبد الملك مرتاض في النّقد الأدبيّ، منظّرا، وكان أيضا من أبرز النّقاد العرب المعاصرين في مجال الإجراء/ التّطبيق، فمضى يستخدم جلّ مناهج النّقد الأدبيّ المعاصر المعهودة بين الدّارسين والباحثين وُفق رؤية نقديّة متفرّدة، ويبقى من أبرز المناهج التي شدّت انتباه عبد الملك مرتاض إمّا في باب التّنظير، أو في بحر الإجراء والتّطبيق، عددا من المناهج السّياقيّة، وأبرزها المنهج التّاريخيّ، والاجتماعيّ، والنّفسيّ. وأمّا المناهج النّسقيّة فكثيرة التّوظيف والتّداول عنده، وأبرزها المنهج البِنويّ، وجماليّة التّلقّي، والمنهج السّيمائيّ، والأسلوبيّ، ... إلخ.

فرّق عبد الملك مرتاض في غير موضع واحد من مؤلّفه "في نظريَّة النَّقد (متابعة لأهمّ المدارس النَّقديَّة المعاصرة ورصد لنظريَّاتها)" بين مدلول مصطلح "الأدب" و"النّقد" ومُقرّا بهذا الشّأن في قوله:" إنَّ الأدب هو الأدب، ولكن النَّقد هو النَّقد، وإنَّ الأدب ينتمي إلى أشكال التَّبليغ في مستواها الأرقى، على حين أنَّ النَّقد ينتمي إلى الإيديولوجيَّات، والثَّقافات، والإتّجاهات الفكريَّة، والنَّظريَّات المعرفيَّة على

اِختلافها. فالكتابةُ أدبٌ قِوامه الخَيال، والنَّقدُ كتابةٌ قوامُها المعرفة"[1]، فالنّقد، إذن، هو عمليّة كشف للأبعاد الجماليّة الفنيّة التّأثيريّة الجماليّة في الأدب وفي مختلف منجزاته؛ الشِّعريّة منها أو النّثريّة.

إنّ الأمر المعلوم، وهو في الآن نفسه الأكثر شيوعا بين جلّ الدّارسين وحتّى البحاثة العرب بأنّه قد عُرِف عبد الملك مرتاض بما أُطلِق عليه مسمّى (منهج اللاّمنهج)، وهذا ما يدلّ دلالة جليّة بأنّ عبد الملك مرتاض لا ينهج منهجا واحد إزّاء تحليله للنّصوص والخطابات الشِّعريّة، وهو ما قد أعرب عنه جليّا في قوله: "وقد دأبنا في معاملاتنا مع النّصوص الأدبيّة التي تناولها بالقراءة التّحليليّة على السّعي إلى المزاوجة أو المثالثة، أو المرابعة، وربّما المخامسة بين طائفة من المستويات باصطناع القراءة المركّبة التي لا تجتري بإجراء أحاديّ في تحليل النّص، لأنّ مثل ذلك الإجراء مهما يكن كاملا دقيقا فلن يبلغ من النّص المُحلَّل كلّ ما فيه."[2]، وبالتّالي فإنّ المنهج النّقديّ عند عبد الملك مرتاض كثيرا ما ينحو منحى صبغة المزاوجة أو حتّى التّعدديّة في التّوظيف في النّص الواحد، وهذا ما يجلّي شتّى الجوانب الخاصّة بذلك النّص المقروء والمُحلَّل من قِبل النّاقد.

ويبقى عبد الملك مرتاض من أبرز الأقلام النّقديّة العربيّة المعاصرة التي حرصت على وجوبيّة عدم المكوث على منهج واحد حيال تحليل النّصوص/ الخطابات الأدبيّة، بدليل أنّه ليس يمكن للمنهج الواحد من أن يوضّح ويظهر مختلف الأطر الملتفّة والمنبني عليها أيضا النّص المُحلَّل، وهذا أمر وارد جدّا بين النقّاد أنفسهم.

المناهج السّياقيّة وتوظيفاتها عند عبد الملك مرتاض:

تكاد تتّفق جلّ آراء النّقاد العرب والدّارسين بأنّ المناهج السّياقيّة إنّما تعنى بالسّياق (Contexte)، والسّياق هو مختلف الأطر الملتفّة بالخطاب والمساعدة على فهمه، ومن هنا جاءت المناهج السّياقيّة كالمنهج التّاريخيّ، والاجتماعيّ، والنّفسيّ "لدراسة الأدب والفنّ بتبيّن العلاقة بين المبدع ومجتمعه وتاريخه وظروفه النّفسيّة"[3]، أيّ أنّ المنهج السّياقيّ إنّما هو كاشف ومبرز لشتّى الجوانب المحيطة والملتفّة بإنشاء الخطابات أو النّصوص، على غرار الجانب التّاريخيّ، أو الاجتماعيّ، أو النّفسيّ.

أ/ ضآلة توظيف المنهج الاجتماعيّ في أعمال عبد الملك مرتاض الأدبيّة:

إنّ أيّ دارس كان لجلّ كتابات عبد الملك مرتاض الإبداعيّة والنّقديّة على السّواء لا يجدها تمرق عن مزيج من توظيفات لمختلف أنماط المنهج السّياقيّ، ونعني بها: المنهج الاجتماعيّ والتّاريخيّ، والنّفسيّ. فأمّا عن المنهج الاجتماعيّ، فإنّ عبد الملك مرتاض قد "طرق باب النّقد سنة ألف وتسعمائة وسبع وستّين، وهي السّنة الثّانيّة لنظام سياسيّ جديد عرفته الجزائر، تبنى في خطابه فكرة إقامة

نهضة جزائريّة حديثة، تقوم على استعادة الذّات ومجدها الضّائع. فأيقظت الحسّ القوميّ والنّزعة العربيّة في نفوس الجزائريّين وتمكّن الأدب من استيعاب ذلك الخطاب، ..."[4]، ولعلّ من أبرز المواضع

التي يتجلّى فيها المنهج الاجتماعيّ في كتابات عبد الملك مرتاض، مختلف أعماله الإبداعيّة النّثريّة، سواء في الرّواية، أو القصّة، وهي التي يتجلّى فيها بوضوح تامّ مدى تأثّره بهذا المنهج النّقديّ.

أ/ الرّواية، والقصّة وتمثّل المنهج الاجتماعيّ فيهما عند عبد الملك مرتاض:

وممّا يتّفق عليه أكثر الدّارسين للأدب العربيّ اليوم، أنّ هذا الأخير، وفي حلّته المعاصرة اغتدى أدبا مائزا متفرّدا عمّا كان عليه في العصر الذي سبقه، وذلك من خلال تفاقم الأقلام الأدبيّة والنّقديّة على صروحه المختلفة، حيث مضى كثير من النّقاد العرب المعاصرين، والجزائريّين منهم بخاصّة، يدوّنون في شتّى الأجناس الأدبيّة من منظوم الكلام عند العرب، أو في الرّواية، أو حتّى في فنّ القصّة، والقصّة القصيرة، وهذا ما جعل كثيرا من النّقاد الجزائريّين المعاصرين يمزجون في مختلف كتاباتهم الأدبيّة فيما بين الشّق التّنظيريّ والإجرائيّ معا، أو ما بين الإبداع ونقد الإبداع بمسمّى آخر أقرب فهما. وظلّ على رأس هؤلاء النّقاد الجزائريّين النّاقد والرّوائيّ الفذّ عبد الملك مرتاض، حيث استأثر هذا العقل المائز بنصيب وافر من الدّراسة والبحث والتّقصّي والمكاشفة من لدن عديد الدّارسين والباحثين منذ سنين مضت وصولا إلى يومنا هذا.

يرى عبد الملك مرتاض بأنّ فنّ الرّواية إنّما هو من أوسع الفنون الأدبيّة الكتابيّة الإبداعيّة السّرديّة الموائمة لتصوير الواقع المعيش لكلّ مجتمع من المجتمعات الحيّة، وما ذلك إلاّ لمدى مصاقبة اللّغة الرّوائيّة السّرديّة للواقع المعيش للمجتمع، وهو ما وضّحه بشكل أبين حين تعريفه لفنّ الرّواية في كتابه (في نظريّة الرّواية) بقوله: "الرّواية عمل قابل للتّكيّف مع المجتمع"[5]، فصِلة الرّواية بالحياة الاجتماعيّة لكلّ مجتمع من المجتمعات الحيّة هي صلة وشيجة وثيقة الصلّة بها، إذ أنّ الرّواية هي "تصوير تمثيليّ للواقع المعيش بثوب لغويّ أدبيّ بارع، يحاول من خلالها الرّاوي أو السّارد تقريب صورة الواقع المَعيش في مجتمع ما من المجتمعات في زيّ لغويّ يرسم بحروف رنّانة، ولغة شعريّة إلى حدّ ما، وهذا هو دأب الرّوائيّ البارع عبد الملك مرتاض في كثير من أعماله السّرديّة، وذلك هو الذي ميّز كتاباته السّرديّة عمّن سواه من الرّوائيّين الذي جايلوه."[6]، والملفت للنّظر في كتابات عبد الملك مرتاض في فنّ

الرّواية مدى إسقاطه لسمات المنهج الاجتماعيّ في عديدها، وكان أبرزها رواية "حيزيّة" ورواية "الخنازير".

إنّ مَن يمعن النّظر في رواية "الخنازير" لعبد الملك مرتاض يلحظ جليّا بأنّها مجرّد إسقاط تصويريّ لحالة المجتمع في سنوات الثّمانينيّات في الجزائر، وكيف كان المجتمع البسيط مقهورا من قبل البيروقراطيّين وأصحاب النّفوذ المتسلّطين، وهو ما دفع بالرّوائيّ عبد الملك مرتاض إلى تصوير ذلك الواقع بلغة سرديّة متميّزة جدّا، ولا ريب في أنّ الكتابة السّرديّة إنّما هي فنيّة من السّارد، وهذا الأخير هو الذي نلفه يخرج اللّغة من ثوب الإبداعيّة إلى ثوب الإخباريّة والتّأثيريّة، فاللّغة الحكائيّة عادة هي ما تجرّ المتلقّي إلى سراديب التّأويل، وإلى دهاليز التّفسير، وكذلك هو الشّأن فيما لاحظناه في كثير من المواطن في رواية "الخنازير" التي جاء بها عبد الملك مرتاض في أواخر ثّمانينيّات هذا القرن.

وهذا من باب الكتابة في الرّواية، وأمّا من الدّارسين أو حتّى النّقاد من يحاول أن يفهم فيما كتبه عبد الملك مرتاض في هذه الرّواية ويطبّق عليها ما جيء به في المنهج الاجتماعيّ من دور مهمّ وغايات لاتّضحت له الرّؤيّة فيما كتبه عبد الملك مرتاض في رواية "الخنازير" على سبيل المثال، ومدى ربطه لأطوار هذه الرّوايّة بما كان يعيشه الجزائريّون في سنوات الثّمانينيّات.

ومن أمثلة ما ذكرناه عن تجلّي المنهج الاجتماعيّ في كثير من المواضع في رواية "الخنازير" عند عبد الملك مرتاض إسقاطها التّامّ للحال المأساويّة التي كان عليها حال الجزائريّين من قهر وظلم من بعض البيروقراطيّين والمتسلّطين على الطّبقة المقهورة، ومن ذلك قول الرّاوي: "... يلائمها ابن الحركيّ، أحوال متائبة يجترّ عقدة أبيها، وأبوها أبوه عدوان للشّعب لا يغنيان للثّورة، أبوك؟ جرفة السّين باعة الحركيّ دلّ عليه المظليّين أبوه قتل أبوك، أبوها؟ يختلس أموالهم أموالك الشّعب أنت"[7]، فترميز عبد الملك مرتاض للمتسلّطين والطّغاة من الجزائريّين على أبناء مجتمعهم دفع به إلى الاصطلاح عليهم بالحَركى، وكما أنّهم قد ذكرهم في موطن آخر باسم الخنازير أو أبناء الكلاب، ولذلك لوضاعة أخلاقهم ومهانتها.

ويبقى المنهج الاجتماعيّ عند عبد الملك مرتاض من أقلّ المناهج السّياقيّة توظيفا في مختلف كتاباته الأدبيّة، والنّقديّة على السّواء، وخاصّة منها الأدبيّة، وما دوّنه من روايات تجلّت من خلالها ملامح هذا المنهج النّقديّ (المنهج الاجتماعيّ)، ومتطرّقا به إلى عدد من القضايا والمسائل التي مسّت حياة المجتمع الجزائريّ على وجه الخصوص، وخاصّة وما ذكرناه في رواية "الخنازير" وكيف تمّ تصوير واقع وحالة المجتمع الجزائريّ في سنوات الثّمانينيّات، وما عاناه من ظلم وجور من قبل المستبدّين

والطّغاة، أو كما وسمهم الرّاويّ باسم الحركى وأبناء الكلاب. فالمنهج الاجتماعيّ، إذن، عند عبد الملك مرتاض هو الأكثر ضآلة من حيث التّوظيف في مختلف كتاباته الأدبيّة والنّقديّة على السّواء.

ب/ كثافة توظيفات المنهج التّاريخيّ في أعمال عبد الملك مرتاض:

يرجع كثير من النقّاد العرب المحدَثين أصل الأدب إلى علّته التّاريخيّة التي أدّت إلى نشوئه وظهوره إلى العَلن، ووقوعه بين أيدي قرّائه، فيرى بعضهم أنّ المنهج التّاريخيّ هو الأكثر توظيفا واستعمالا عند كثير من النّقاد اليوم، ويقرّ بعضهم من ناحيّة أخرى بأنّ المنهج التّاريخيّ هو "التّربة التي ينمو فوقها الأدب وينضج فيها الأديب"[8]، إذن، فلا ضير في أن يكون المنهج التّاريخيّ هو الأكثر إقبالا من

حيث التّوظيف من لدن النقّاد أثناء فَلْيِهم للنّصوص والخطابات الأدبيّة على اختلاف أنماطها وتنوّع أشكالها.

ولم يَشْذُ النّاقد الألمعيّ والباحث الجزائريّ عبد الملك مرتاض عن هذه القاعدة، بل إنّنا نلفي المنهج التّاريخيّ عنده من المناهج السّياقيّة الأكثر تواترا في منهجه النّقديّ المتفرّد المائز، بل وإنّه كان كثير الاشتغال عليه في ج'لّ كتاباته النّقديّة الأدبيّة، على غرار استعماله إيّاه في كثير من كتبه التي أرّخ فيها إمّا للأدب الجزائريّ، أو لفنون الأدب العربيّ بشكل عامّ على غرار: فنّ القصّة، وفنّ المقامة وفنّ الخطابة ... إلخ.

وبما""""" أنّ المنهج التّاريخيّ كان من أبرز المناهج النّقديّة التي استأثرت ببالغ اهتمام شتّى شرائح النقّاد العرب المحدَثين والمعاصرين على حدّ سواء، وما ذلك إلاّ لاتّصاله الوشيج بعمليّة تصوير وتأريخ الوقائع المعيشة لمجتمع ما من المجتمعات، أو حضارة من الحضارات وتقريب صورتها للمتلقّي بشكل صحيح سليم، فها هو أحد أعلام هذا المنهج النّقديّ الذّائع التّداول وكثير الاستعمال يحدّد مهامه ويجلّي أدواره المختلفة من كلّ ناقد إلى ناقد آخر، فيحدّدها سيد قطب في نقط بارزة، وأهمّها:

1- تفسير الظّاهرة الأدبيّة بالعودة إلى التّاريخ.

2- معالجتها على أنّها نتاج محدّد في الزّمان والمكان.

3- التّعامل معها على أنّها تصوير للبيئة، فيبحث عن مدى ما أخذت الطّبيعة الفنّيّة منها، ومدى ما وهبته، ثمّ إدراك مدى تفاعل المحيط مع كلّ لون ونتاج.

4- توثيق الظّاهرة الأدبيّة، مع تجنّب الأحكام الجازمة والاستقراء النّاقص.[9]

وبالعودة إلى جلّ كتابات عبد الملك مرتاض الأدبيّة والنّقديّة نلحظ أنّه كان شديد الحرص، بل مبالغا في الاهتمام بهذا المنهج على حساب المنهج الاجتماعيّ، وهو ما توضّحه كثرة تآليفه التي دوّنها في هذا المنهج السّياقيّ الفسيح الرّحب، وكان من أبرز تلكم التّآليف الأدبيّة النّقديّة: كتاب "الأدب الجزائريّ القديم (دراسة في الجذور)، و"فنون النّثر الأدبيّ في الجزائر من (1931-1954)"، و"فنّ المقامات في الأدب العربيّ"، وكتابه "القصّة في الأدب العربيّ القديم".

وتبقى دلائل انصباب اهتمام عبد الملك مرتاض بتوظيف المنهج التّاريخيّ عديدة مختلفة، وهي ما تجلّيها بشكل أبين مختلف أعماله النّثريّة التي اشتغل فيها أو عمل في نقدها، ومن أبرزها: الرّواية، والقصّة، والمقامة، والمقالة، والمسرح، وحتّى الخطابة ... وهلمّ جرّا على باقي أنماط الكتابة النّثريّة التي نستجلي من خلالها ملامح المنهج التّاريخيّ عند عبد الملك مرتاض.

والملاحظ فيما ذكرناه آنفا من تآليف نقديّة تجلّي ملامح المنهج التّاريخيّ عند عبد الملك مرتاض إنّما هي ككلّ مؤلّفات تعنى بدرجة كبيرة بدراسة الجانب النّثريّ من الكلام العربيّ، وهو ما يعني ضآلة اهتمامه بالكلام الشّعريّ في الجانب المقابل، وهو ما أعرب عنه عبد الملك مرتاض بنفسه موضّحا لهذا الشّأن بقوله: "إنّ اهتمامي بالدّراسات الشِّعريّة اهتمام ضئيل، وربّما يعود ذلك إلى طبيعة الدّراسات الأولى التي قمت بها في حياتي العلميّة كانت منصبة على النّثر، فابتداءً من أوّل كتاب ظهر لي القصّة في الأدب العربيّ" إلى دكتوراه الحلقة الثّالثة التي دارت حول فنّ المقامات في الأدب العربيّ، إلى دكتوراه الدّولة التي قدّمتها عن أجناس النّثر الأدبيّ في الجزائر، نجد أنّ لي اهتمامات لا علاقة لها بالشِّعر."[10]، وبالتّالي تتّضح لنا صورة المنهج التّاريخيّ جليّا عن عبد الملك مرتاض إمّا في كتاباته النّثريّة أو في أعماله وكتاباته النّثريّة على السّواء، وهذا رأي وارد جدّا بين النّقاد والدّارسين في النّقد الجزائريّ المعاصر.

ومن يقرأ كتابات عبد الملك مرتاض الخاصّة بالجانب التّأريخيّ سواء للأدب الجزائريّ أو حتّى بعض فنون الأدب العربيّ النّثريّة، يلحظ مدى حرصه التّام على سمة الانطباعيّة وميزة الذّاتيّة، وهي التي طغت عليه في إصداره لكثير من الأحكام النّقديّة، وفي كثير من المواضع، وفي ذلك نجد إشارة يوسف وغليسي في قوله أنّ عبد الملك مرتاض قد "استهلّ مشواره النّقديّ، منذ بداية السّتينيّات، ناقدا انطباعيّا (وإن لم يصدع بذلك)، وكان كتابه (القصّة في الأدب العربيّ القديم) وشيء من كتابه (نهضة الأدب العربيّ المعاصر في الجزائر) حصادا مبكّرا وسريعا لهذا الاستهلال."[11]، وهذا إذا علمنا أساسا بأنّ الانطباعيّة عند النّقاد العرب المحدَثين هي من الأمور الواجب توفّرها عند النّقاد المختصّين في النّقد التّأثّريّ، ومن ذلك ما ذكره محمد مندور في قوله: "والنّقد التّأثّريّ لا زلت أعتقد أنّه الأساس

الذي يقوم عليه كلّ نقد سليم، وذلك لأنّنا لا يمكن أن ندرك الجماليّة في الأدب بأيّ تحليل موضوعيّ، ولا بتطبيق أيّة وصول أو قاعدة تطبيقا آليّا... ."[12]، وبالتّالي هذا الذي عهدناه وبشكل واضح جدّا في توظيفات عبد الملك مرتاض للمنهج التّاريخيّ، وتقديمه لكثير من الأحكام في مختلف المسائل والقضايا انطلاقا من الحكم الذّاتيّة والانطباعيّة الخاصّة.

ولقد ذكر عبد الملك مرتاض عن نفسه في كتابه "نهضة الأدب العربيّ المعاصر في الجزائر" بأنّه كان من المؤرّخين الذي ساهموا في كتابة تاريخ الأدب الجزائريّ، فكان يأخذ المعلومات من الثّقاة وينقلها في مضامين كتبه، ومن ذلك قوله: "لقد كنت أكتب هذا الكتاب وكأنّني أستمدّ من ماض بعيد، واستقي من مصادر يسيطر عليها المجهول أكثر من المعلوم، ولذلك وجدتني مضطّرا إلى اصطناع المنهج الرّوائيّ في كثير من المواقف العلميّة قبل الإقدام على تقدير رأي أو إصدار حكم."[13]، فالمنهج التّاريخيّ، إذن، ومثلما يصرّح به عبد الملك مرتاض عنده هو وصيل العُلقَة بالمنهج الرّوائيّ في كثير من الأحايين، وفي عديد المواضع في كتبة النّقديّة والأدبيّة المختلفة.

وهكذا، فإنّ المنهج التّاريخيّ عند عبد الملك مرتاض إنّما هو مرتبط وفي مواضع عديدة متعدّدة بالمنهج الرّوائيّ من جهة، ومثلما أسلفنا ذكره من ذي قبل، وأيضا فهو منوط بالميزة الانطباعيّة وخاصيّة الذّاتيّة، وهو ما اصطلح عليه محمد مندور بالنّقد التّأثّريّ والواجب فيه حضور الانطباعيّة كعنصر أو آليّة مهمّة أساسيّة.

وتبقّى لنا أن نبيّن أهم ملامح المنهج التّاريخيّ عند عبد الملك مرتاض، وهي التي نحصرها في:

- اعتماد النّاقد على المنهج التّاريخيّ في التّأصيل للأدب الجزائريّ.
- التّأصيل للأجناس الأدبيّة المقتبسة في الأدب العربيّ ونزع صفة الحقائق المطلقة عن هذه الأجناس واعتبارها وقائع متطوّرة ولها أصل انبثقت عنه.
- إحياء التّراث وإعادة دراسته دراسة علميّة.
- الدّراسات التّاريخيّة اقتصرت على جميع أشكال النّثر: "القصّة، المقالة، المسرح، التّأليف، الخطابة، المذكّرات، السّيرة الذّاتيّة، الرّسائل، المقامات."، وأمّا في مجال الشِّعر فلم يباشر العمليّة النّقديّة باتّجاهه.[14]

وعليه تبقى من أبرز الأعمال التي استظهرت ملامح المنهج التّاريخيّ في تفكير عبد الملك مرتاض النّقديّ كتبه التّاليّة: "فنّ المقامات في الأدب العربيّ"، "مقامات السّيوطيّ"، "الأدب الجزائريّ القديم

(دراسة في الجذور)، و"فنون النّثر الأدبيّ في الجزائر من (1931-1954)"، و"فنّ المقامات في الأدب العربيّ"، وكتابه "القصّة في الأدب العربيّ القديم". فهذه أبرز التّآليف النّقديّة التي توضّح ملامح المنهج التّاريخيّ عند عبد الملك مرتاض، وبشكل أبين وأوضح بين الدّارسين والباحثين في نصوص الأدب العربيّ على اختلافها، وخاصّة النّثريّة.

ج/ الاستحداثات النّقديّة عبد الملك مرتاض في المنهج النّفسيّ:

إنّ اعتماد عبد الملك مرتاض على المنهج النّفسيّ يكاد يكون قليلا مقارنة بالمنهج الذي تحدّثنا فيه من ذي قبل، ونقصد به المنهج التّاريخيّ، ونرجع علّة ذلك الشّأن أساسا إلى جملة من الدّوافع، ونحصرها في:

- تشكيكه في جدوى الدّراسة النّفسيّة.
- تزامن ظهور هذا المنهج في الجزائر مع بداية انفتاح النّاقد على المناهج النّصيّة.

- عدم تقديم الجامعة لمقياس علم النّفس الأدبيّ.[15]

بيد أنّ هذا لا يعني بأنّه ليس لعبد الملك مرتاض أيّة إسهامات في هذا المهنج النّقديّ السّياقيّ، بل وعلى العكس من ذلك، فلعلّ الذي يكون قد اطّلع على مؤلّفه "في نظريّة النّقد" يتّضح له جليّا مدى إسهامه البالغ في استحداث عديد المفاهيم والمصطلحات، ومن ذلك إتيانه بمصطلح جديد في السّاحة النّقديّة المعاصرة، وخاصّة في النّقد النّفسيّ، وبعد أن كان يطلق على تحليله بين النّقاد التّحليل النّفسيّ، آثر عبد الملك مرتاض تسميته بالتّحلفسيّ.[16]

ولقد بيّن عبد الملك مرتاض أهمّ الأسس والمعالم التي يقوم عليها التّحليل التّحلفسيّ في تفكيره النّقديّ، وحصرها في النُّقط التّاليّة:

- نظريّة للحياة النّفسيّة وضعها فرويد، وهي تنهض على وضع اللاّوعيّ على أساس أنّه موضوع يوجّه بعض التّصرفات انطلاقا من عناصر مكبوتة.
- منهج البحث المعمّق النّفسانيّ ينهض على هذه النّظريّة.
- علاج يباشر هذه المنهجيّة، ويقترب هذا المعنى من مفهوم التّحليل.[17]

ولقد ذكر صاحب كتاب "في نظريّة النّقد" جملة من النّقاط البارزة التي يجلّي من خلالها شكل النّقد النّفسيّ أو المنهج التّحلفسيّ كما اصطلح عليه في ذاته، ويرى عبد الملك مرتاض بأنّ:

- نظريّة التّحليل النّفسيّ لا تستطيع أن تكون منهجا متكاملا، للنّقد الأدبيّ.[18]
- نظريّة التّحليل النّفسيّ يمكن أن تكون ظهيرا في تأويل بعض ظواهر النّص.[19]

- تبحث عن الهدف خارج إطار النّص من حيث هو لا يوجد إلاّ داخل النّص نفسه، المؤلّف وحدة مشكلّة من دال ومدلول.
- نظريّة التّحليل النّفسيّ والاجتماعيّ غيّبت في دراستهما للكفاءة الجماليّة.

ويبقى أن نشير إلى فكرة أنّ اشتغال عبد الملك مرتاض على المنهج النّفسيّ إنّما كانت قليلة، ولهذا لم نلحظه ينهج بتطبيق هذا المنهج إلاّ قليلا وذلك في فنون النّثر الأدبيّ، والقصّة منها بشكل خاصّ.

وهكذا يتّضح لنا جليّا بأنّ اهتمام النّاقد عبد الملك مرتاض بالمناهج السّياقيّة كان متباينا جدّا، واستخدامه لها كان متباينا أيضا، إذ أنّ اهتمامه وتوظيفه للمنهج التّاريخيّ كان الأكثر استعمالا مقارنة بالمنهجين الاجتماعيّ والنّفسيّ، وقد بيّنا علل ذلك سلفا، وبالتّاليّ نرى بأنّ المناهج السّياقيّة عند جلّ النقّاد العرب المحدَثين والمعاصرين، وعند عبد الملك مرتاض على وجه الخصوص إنّما هي آليّات يتغيّا بها النّبش في الأطر الملتفّة حول الخطابات حينا، وأيضا بدراسة الدّوافع الرّاميّة إلى إنشاء خطاب ما بأسلوب ما، وإنشاء خطاب آخر بأسلوب آخر غير الأسلوب الأوّل، ومن هنا نخلص إلى فكرة أنّ المناهج السّياقيّة، وعلى رأسها: المنهج الاجتماعيّ، والتّاريخيّ، والنّفسيّ إنّما تُعنى بدراسة الأدب من منطلق الجوانب التّاريخيّة والاجتماعيّة والنّفسيّة المكوّنة والمهيكلة لوجوده وبنائه، وهذا رأي مشروع ومتداول بين جلّ النّقاد المحدَثين والمعاصرين على السّواء.

قائمة المصادر والمراجع:

1. جهاد فاضل، أسئلة النّقد (حوارات مع النّقاد العرب)، (دط)، الدّار العربيّة للكتاب، ليبيا تونس، دت.
2. سعد ظلام، مناهج البحث الأدبيّ، (دراسة تحليليّة تطبيقيّة)، ط2، مكتبة نهضة الشّرق، القاهرة، 1996.
3. سيد قطب، النّقد الأدبيّ أصوله ومناهجه، ط5، دار الشّروق، القاهرة، بيروت، 1983.

الهوامش:

[1]- عبد الملك مرتاض، في نظريَّة النَّقد، (متابعة لأهمِّ المدارس النَّقديَّة المعاصرة ورصد لنظريَّاتها)، (د.ط)، دار هومة للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، 2010، ص 30.

[2]- عبد الملك مرتاض، التّحليل السّيميائيّ للخطاب الشِّعريّ تحليل مستوياتيّ لقصيدة شناشيل ابنة الحلبيّ، (دط)، دار الكتاب العربيّ، الجزائر، 2001، ص 7.

[3]- صلاح فضل، مناهج النّقد المعاصر، (دط)، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، مصر، 1997، ص 26.

[4]- شارف فضيل، مستويات الخطاب النّقديّ عند "عبد الملك مرتاض" -قراءة في المنهج-، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في النّقد الأدبيّ الحديث والمعاصر، مشروع الخطاب النّقديّ في الجزائر بين النّظريّة والتّطبيق، جامعة وهران، الجزائر، 2013/ 2014، ص 21.

[5]- عبد الملك مرتاض، في نظريّة الرّواية بحث في تقنيات السّرد، (دط)، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، وهران، 2005، ص 48.

[6]- يونس بوناقة، التّميّز اللّغويّ في النّمط السّرديّ لرواية "الخنازير" لعبد الملك مرتاض، مجلّة اللّغة الوظيفيّة، جامعة الشلف، العدد 2، المجلّد 5، ص 234.

[7]- عبد الملك مرتاض، رواية الخنازير، (دط)، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1985، ص 46.

[8]- سعد ظلام، مناهج البحث الأدبيّ، (دراسة تحليليّة تطبيقيّة)، ط2، مكتبة نهضة الشّرق، القاهرة، 1996، ص 22-23.

[9]- سيد قطب، النّقد الأدبيّ أصوله ومناهجه، ط5، دار الشّروق، القاهرة، بيروت، 1983، ص 150 وما بعدها.

[10]- جهاد فاضل، أسئلة النّقد (حوارات مع النّقاد العرب)، (دط)، الدّار العربيّة للكتاب، ليبيا تونس، دت، ص 215.

[11]- يوسف وغليسي، الخطاب النّقديّ عند عبد الملك مرتاض، (دط)، رابطة إبداع الثّقافيّة، 2002، ص 33.

[12]- محمد مندور، معارك أدبيّة، (دط)، دار نهضة مصر للطّباعة والنّشر، الفجّالة القاهرة، (دت)، ص 5.

[13]- عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربيّ في الجزائر، (دط)، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، (دت)،ص 6.

[14]- شارف فضيل، مستويات الخطاب النّقديّ عند "عبد الملك مرتاض" -قراءة في المنهج-، ص 57.

[15]- نفسه، ص 60.

[16]- عبد الملك مرتاض، في نظريّة النّقد، (دط)، دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، (دت)، ص 137.

[17]- شارف فضيل، مستويات الخطاب النّقديّ عند "عبد الملك مرتاض" -قراءة في المنهج-، ص 62.

[18]- عبد الملك مرتاض، في نظريّة النّقد، ص 158.

[19]- نفسه، ص 158.